السميائيات والتواصل

أحمد يوسف

كلية الآداب – جامعة وهران/الجزائر

"العالم مبني وفق أنموذج اللسان" سابير-وورف

تمهيد

لا يكاد ينفصل التواصل اللساني في نظر اللسانيات المعاصرة عن الحدث الاجتماعي؛ لأنه مهما كانت المجتمعات على اختلاف محمولاتها الثقافية وتفاوت أنماط عيشها ودرجة تكوين مؤسساتها وتباين أنظمتها السياسية إلا أنها تشترك في حاجتها إلى الاتصال والتواصل والحوار. ومن هنا ندرك الأسس الإبستيمولوجية لتلك الفروق التي وضعها **دو سوسير وشومسكي** بين اللسان والكلام من جهة والكفاية اللغوية والأداء اللغوي من جهة أخرى وكذا اهتمام السيميائيات بدراسة شكلي التعبير والمحتوى اللذين بسطتهما اللسانيات النسقية لـــ**يامسليف.**

يوصف الكلام(1) بأنه إنجاز ملموس لأنموذج فونولوجي داخل الفعل التواصلي الذي هو أكثر الوقائع وضوحا، ويعد اللسان القاعدة الأساس للعمليات الكلامية. ونستخلص من هذا الحد أن الكلام غير معزول عن النسق الفونولوجي أو التعبيري. لهذا ألفيت علماء اللسانيات بعامة والفونولوجيين بخاصة يتعاملون مع الكلام على أنه ظاهرة طبيعية (فيزيائية) ملموسة يمكن معاينتها وإعمال الملاحظة فيها إن بالأدوات الطبيعية عن طريق الأذن وإن بالأدوات الاصطناعية التي أنتجتها التقنيات الحديثة من وسائل يصطنعها علماء الطبيعة لتحليل هذه الظاهرة الفيزيائة.

وفي المقابل نلفي أن اللسانيات درست ظاهرة اللسان على أنها "معطى" يتسم بالتجريد ليس في الإمكان الاستعانة بأدوات العلوم الطبيعية من أجل دراستها، فانصرف التحليل العلمي للسان إلى شكله، وأعرض عن جوهره. ومن هنا حصرت السيميائيات دراسة الدلالات المفتوحة "السيميوزيس" في شكلي التعبير والمحتوى؛ ولعل ذلك ما عاد بالنفع العظيم على استقلالية اللسانيات عن العلوم

الأخرى التي كانت تنازعها في هذا المجال؛ غير أن اللسان يعد مرتكز كل نشاط كلامي من حيث إنه القاعدة التي تنظم الكلام وتشكله.

وإنه لمن فرط البداهة القول: بأن الخطاب لا يتم إلا بين شخصين فما فوق؛ لأن الكلام لا يتم إلا به، وأن التواصل لا يتحقق إلا بوجوده. وقد أشار القاضي عبد الجبار إلى أن " المخاطبة مفاعلة، ولا تستعمل إلا بين نفسين يصح لكل واحد منهما أن يخاطب ابتداء، ويجيب صاحبه عن خطابه" (2). وفي حالة الحوار مع الذات فيما يسمى بالمونولوج أو المناجاة الذاتية فإن الداخل يقوم مقام الغير الذي يتجه إليه الخطاب.

وعلى هذا الأساس حصر أشياع **سوسير** السيميائيات في مدارسة أنساق العلامات التي لها وظيفة تواصلية. فلا يمكن تصور سيميائيات بدون تواصل حسب **جورج مونان**، كما أن التواصل في نظر **بويسنس** هو وحده ما يؤلف موضوع السيميائيات وحدودها. وإن كانت النظريتان السيميائية والتواصلية عالمين فسيحين لكل منهما اهتمامه وانشغاله بموضوعه إلا أن لهما قواسم مشتركة كبيرة. كما أنهما يكادان يتفقان في أن كل نشاط لغوي موجه للتواصل في إطار حاجة الإنسان للتبادلات الاجتماعية؛ ينضاف إلى هذه الوظيفة فإن اللغة معمولة ليعبر بها القوم عن أفكارهم وأغراضهم حسب ما ذكر **ابن جني** ذلك في حده للغة التي "هي الأداة العجيبة التي تميز النوع البشري عن الأنواع الحيوانية الأخرى"(3) ، وأن خصيصة التعبير التي تحدث عنها **ابن جني** هي التي تجعل منها أداة عجيبة.

يتفرد بهاء النسق اللساني بجملة من المزايا التي لا تكاد تتوافر في "اللغات" الأخرى. فإذا قارنا بين تواصل الإنسان واتصال الحيوان سنلفي أن تبليغ مرسلة النحل لا تتم بجهاز النطق ولكن بوساطة حركات الرقص التي لا تحقق مراميها إلا ضمن معطى الإدراك البصري الذي يقتضي زمنا محددا بالنهار، ويتطلب شرط الإضاءة أو النور؛ وهذا ما لا تتقيد به لغة الإنسان لكونها تعتمد على طبيعة الصوت الذي يدرك من جميع الجهات، ولا يتحدد بزمن ما.

ويعد الحوار(4)ركيزة التواصل الإنساني، فهو موصول بخبرات موضوعية؛ حيث يضفي عليه بهاء نسقيا وهباء سيميوزيسيا؛ ذلك لأن الحوار يعد استجابة لتمظهرات لسانية تتناسل تناسلا لانهائيا لا تحبسه أي إرادة خارجية. إن كل سيرورة تواصلية مشروطة بمقام ومكان وبدورة كلامية إذا كان الأمر مشافهة وهو ما لا نلفيه فيما يجري من اتصال داخل مملكة النحل؛ إذ نعدم وجود قاعدة السؤال والجواب وفق نظرية المدرسة السلوكية التي ترى أن كل سلوك حاصل بموجب قانون الإثارة

والاستجابة. وحينما يفتقر التواصل إلى قاعدة السؤال والجواب وقانون(5) الإثارة والاستجابة في النشاط اللغوي ينعدم شرط الحوار؛ وهذا ما تحظى به لغة التواصل الإنساني، ولا يتوافر له حضور في وسائل الاتصال بين الحيوانات.

إن غياب الحوار في الاتصال بين مجموعة النحل كما يسميها **موريس ماتيس Maurice Mathis** يدل على أن الاستجابة هي فعل لساني محض يتحول فيه الكلام إلى خطاب ومحادثة؛ وعليه يرى **بنفينست** (6)أن ما يوصف بلغة النحل ما هو إلا عبارة عن سنن إشاري محتواه ثابت ومرسلته محددة وبثه أحادي؛ ولهذا فهو يفتقر إلى الشرط الاجتماعي؛ لأن مكوناته غير قابلة للتقطيع والترميز والتحليل. وتلك هي أهم الفروق التي أحصاها **بنفينست** بين الاتصال الحيواني ولغة الإنسان.

الغائية البيولوجية والقصدية اللغوية

تطرأ تحولات عديدة وتفاعلات عميقة في حركة المجرة السيميائية، وتعقبها انقسامات متتالية في بنية نسيج السيميوزيس، ويظهر فضل التواصل في إقراره بأنه مدين للتمدن البشري الذي تعد فعالية الحوار من أسمى آياته. ولا يمكن -في هذا الشأن- مجاراة بعض علم النفس من ذوي المذهب السلوكي في أن ما يلاحظ من تفاوت بين الإنسان والحيوان في مجال الاتصال واللغة لا تتعدى طبيعة الفروق بينهما صفة الدرجة؛ وكانوا يلهجون بهذا الاعتقاد بفعل التأثير السحري الذي تركته نظرية التطور الداروينية في نفوسهم.

من اللافت للانتباه أن السيميائيات صدعت بأن موضوعها يتمثل في دراسة جميع الأنساق السيميائية الدالة؛ ولكن قلما ارتفعت عقيرة السيميائيين للقول بأن لا تفاضل بين الأنساق الدالة؛ وأن النسق اللساني لا امتياز له على بقية الأنساق الأخرى؛ بل خلافا لذلك زعم بعض السيميائيين ومنهم **بارت** و**كرستيفا** بأنه من الصعوبة بمكان قيام أي مشروع سيميائي بمعزل عن الأنموذج اللساني الذي يعد علما قائدا للسيميائيات؛ وقد خالفوا بذلك **دو سوسير** شيخ اللسانيات وإمام السيميائيات في العصر الحديث.

إذا رمنا المقارنة بين طريقة استقبال العلامة لدى الإنسان والحيوان فإنها لا تكاد تعدو دائرة الإشارة لدى الحيوانات بينما تتحول العلامات إلى رموز إذا أبقينا على التمييز الذي وضعه **دو سوسير** بين العلامات التي تقوم على مبدأ الاعتباطية والرموز التي تسند إلى مبدأ التحفيز أو التعليل. ولهذا ألفيت **جاك لاكان** يقرر بأن الرمز هو الذي يجعل من الحيوان الناطق إنسانا، وارتقى مبدأ الرمزية لدى

أرنست كاسيرر إلى أن يتزله متزلة كبيرة في فلسفة الأشكال الرمزية ليطاول العلم برمته ليضحى الإنسان حيوانا رامزا.

يفتقر الاتصال الحيواني إلى فضيلة الخيال الذي لا يغذي النشاط السيميائي لدى الحيوان. وعليه فإن العلامات اللسانية لا تكتفي بتحقيق مقاصدها، ولا تبلغ مراميها بكيفية آلية على نحو ما نقف عليه في مجال السبرينطيقا التي هي عبارة عن دراسة سبل تبادل المعلومات داخل المنظومات الحية والآلية؛ إذ يتم الاتصال بفعل تحويل العلامات عن طريق المرسلات(7)، وإنما تتضمن محمولات العلامة اللسانية غنى الخيال الإنساني دون أن نوصد الأبواب أمام التطور المذهل في عالم البيولوجيا ولا سيما في ميدان الهندسة الوراثية والسعي إلى تحسين السلالة البشرية وما ستبديه الأيام القادمات بخصوص الاستنساخ البشري بوجهيه الإيجابي والسلبي.

إن السؤال المطروح هل ثمة تناسق بين البنيتين اللسانية والبيولوجية في التركيب الخلقي للإنسان؟ ما علاقة سر اللغة بذكاء الإنسان؟ وهل تستطيع اللغة أن تستغني عن النظام البيولوجي المتمثل في الذكاء والذاكرة والجهاز النطقي؟ وهل بمقدور اللغة أن تتوسط العلاقة بين الحياة النفسية والنظام البيولوجي؟ إذا أصغينا إلى النتائج التي انتهت إليها اللسانيات العامة فإن النظام البيولوجي وجهاز النطق تحديدا لا علاقة مباشرة له بواقع اللسان. وحجتهم في ذلك أن هذه الأجهزة لا تؤثر في النسق العام للسان، ولا تغير بنيته في شيء. ولعل ذلك ما حدا باللسانيات العامة في ميلادها الأول إلى أن تنحو نحوا محايثا في مدارسة اللسان في ذاته ولذاته، وميزت بين الصوتيات العامة والصوتيات الوظيفية، ينضاف إلى ذلك إدخال البعد الإبداعي في النشاط اللغوي من قبل لسانيات **شومسكي**.

يمكن أن نقارن بين الغائية الطبيعية والقصدية اللغوية. فالقصد جوهر السيرورة التواصلية وعماد المعنى، ولا يمكن أن يكون فعلا نابعا من الضرورات الطبيعية التي تمليها الحاجات العضوية في الإنسان؛ ولهذا تصبح الوظيفة الغائية غائبة في مضمون المرسلات؛ ذلك أن القصد توجه مباشر إلى الموضوع ليتماهى مع فعل الإدراك من قبل الذات. ومن هنا ينبثق الوعي الذي يؤلف ما يطلق عليه **كاسيرر** بالمبدأ الرمزي. إن الإنسان وهو يتدرج في النمو الطبيعي وعندما يشارف السنتين والنصف السنة يبدأ يعي ذاته، ويصطنع ضمير المتكلم "أنا" حينئذ تبدأ تتكون لديه البوادر الأولى للوعي؛ وهو بذلك ينتقل من الطور الحيواني إلى الطور الإنساني. وقد سبق لـــ**هالدان**(8) **Haldane** أن قال بأن الطفل حينما يقول لأمه: "إني جائع أو أريد أن أنام" فهو مازال في طور الحيوان؛ ولكن عندما يقول لها: "أنظري ما ذا أريد أن أصنع هذا الصباح" فإنه يبدأ في التعبير عن أنه إنسان. علما بأننا حينما

نصنف الإنسان في طور الحيوان فهذا لا يعني تسليمنا بالنظرية التطورية؛ وإنما نستعمل ذلك على سبيل الاستعارة والتجوز.

تضفي اللغة التواصلية أبعادا رمزية على الموضوعات التي هي محل إدراك، ولا تكتفي بتمثلها تمثلا عابرا فقط. والحاصل أن العالم المبني وفق الأنموذج اللساني يجعلنا نؤكد حاجة اللسان إلى النشاط البيولوجي للجسم وحيويته ولا سيما بعد استكشاف الحامض النووي؛ وليس أدل على ذلك من أنه استعار لنفسه عضوا من أعضائه المتمثل في اللسان؛ بيد أن البناء الحيوي لجسم الإنسان تتعدد وظائفه ومن ثم يصبح ضرورة من ضرورات الوقائع اللسانية التي تنماز عن البعد الطبيعي للمكونات البيولوجية بتفاعلاتها الكيماوية بحيويتها القصدية.

سيكون لمثل هذه الأبحاث نتائج طيبة في العلوم المعرفية بعامة وفي ميدان تعليمات اللغة بخاصة؛ حيث ما فتئت اللسانيات تبحث في أسباب الاضطرابات الكلامية مثل الحبسة التي أولاها **ياكبسون** اهتماما كبيرا؛ وذلك من أجل الوصول إلى الطرائق الناجعة لمعالجة هذه الأمراض اللغوية وتحسين الأداء التواصلي لهؤلاء المرضى وإدماجهم داخل مجتمعاتهم. فقلما ولت الدراسات المنشغلة بموضوع التواصل وجهتها إلى مشكلة الإعاقات الكلامية وأضرارها النفسية والاجتماعية وحتى الاقتصادية.

تكاد تتفق اللسانيات والسيميائيات على تسمية الأنساق التواصلية الدالة باللغات علما بأنها تختلف –كما سبقت الإشارة إلى ذلك- عن وسائل الاتصال التي نلفيها لدى الكائنات الحيوانية التي تفتقر إلى القدرة على إضفاء القصدية على أنساق التواصل، وتكاد تشمل حتى تلك الأنواع من الاتصال التي يبتكرها الإنسان عن طريق العلم والتقنيات المعاصرة. هناك ميل معلن لبعض فلاسفة اللغة وعلماء اللسان(9) في دحض فكرة وجود "لغة عالمية" على غرار ما دعا إليها **لايبنتز**؛ وعلى الرغم من بعض وجاهة هذه الدعاوى إلا أننا نفضل أن ندع المجال مفتوحا لهذا الحلم الإنساني؛ ولا سيما أن الأنساق السيميائية الدالة عدت لغات لكونها تضطلع بمهمة التبليغ والدلالة على السواء. إذا كان التواصل يظهر جليا في النشاط اللغوي فهناك نشاط آخر مرتبط بالحياة النفسية اللاواعية مثلما يظهر في الأحلام؛ ومثل هذه الوقائع اللغوية كان قد وضع **فرويد** اللبنات الأولى لمعالمها، وصارت موضوعا يتداوله علم النفس اللغوي تداولا استثمرته كثيرا السيميائيات في العمل على توسيع مفهوم اللغة لتشمل أنساق العلامات غير اللسانية التي تتضمن الخصيصة الدلالية.

ولعل ذلك ما جعل هذه اللسانيات المحايثة لسانيات غير تداولية(10) كونها لا تنصرف إلى البحث عن المعنى بوصفه محمولا سيميائيا كما يتصوره المتلقي أو مستعمل العلامة، ولا تأخذ في حسبانها الدور المهم للسياق في النشاط الكلامي الذي يثير بدوره اللسان؛ وكأنها تصور اللسان كائنا مجردا ومتعاليا، فاكتفت بجرد القواعد العامة للألسن البشرية، وتصنيف وحداتها تصنيفا لا يظهر الجوانب الخلاقة في إبداع الفرد للغته. إن المعيار الوظائفي يبقى الأساس الذي يميز اللسان من حيث هو ظاهرة كونية تتصف بالتعدد، ولها المزية في إضفاء صفة الإنسانية على البشر من بين الكائنات الأخرى. وإذا رمنا تأمل طابع التعدد الذي تنماز به فإنه يمتد حتى اللسان ذاته.

لا يمكن أن تتنكر السيميائيات التأويلية للنتائج العلمية المحمودة التي حققتها السيميائيات المحايثة، وبحثها بإصرار وجدارة عن نجاعة مشروعها في علمنة دراسة المعنى ضمن البرنامج الطموح لدلاليات **غريماس** البنوية عام 1966 الذي كان فتحا مبينا في تاريخ السيميائيات الحديثة. إن هذا المشروع مؤمن بالمنطلقات اللسانية لبناء المعرفة السيميائة بناء علميا صارما أو هكذا أراد له الشيخ، وسار على دربه الأتباع ممن وصفوا بـــ**"مدرسة باريس"**، ولا بد من الإشارة إلى أن الشيخ بدأ من حيث عجز **بارت** عن إنجازه، ودعا إليه ألا وهو بناء لسانيات للنص يكون في مقدورها تحقيق درجة عالية من النسقية التي اهتدى إليها **فلاديمير بروب** بخصوص الانتقال من دراسة اللسان إلى دراسة الكلام.

يكاد الكلام اللغوي يشمل جميع المناحي التي تحيط بالحياة الإنسانية؛ ومنها على وجه الخصوص ضرورة التواصل بين البشر وحاجتهم للتفاهم عبر آليات التخاطب والحوار؛ ذلك أنهم يتوافرون على خصيصة الصوت اللغوي القابل للتقطيع المزدوج -كما قرر ذلك **أندري مارتيني**- والقادر على حمل نواة المعنى. لقد بات من البديهي القول بأن الخطاب هو عملية مشافهة من اثنين بتعبير إمام النحاة **سيبويه**؛ ولطالما أولى هذا الإمام عناية كبيرة لعملية التخاطب في فهم الكلام المفيد، وفي إدراك لطائف التركيب اللغوي في العربية، واستحضار البعد السياقي في تعليله لهذا المسألة النحوية أو تلك. وليس أدل على ذلك تقسيمه للكلام من حيث الاستقامة والإحالة. فهناك كلام مستقيم حسن ومثاله: "أتيتك أمس" وكلام محال ومثاله: "أتيتك غدا" وكلام مستقيم كذب ومثاله: "حملت الجبل" وكلام مستقيم قبيح ومثاله: "كي زيد يأتيك" وكلام محال كذب ومثاله: "سوف أشرب ماء البحر أمس". وهذا التقسيم للكلام يستند إلى المتصورات التداولية التي تحتكم إلى السياق الذي يقرر

استقامة الكلام أو إحالته، كذبه أو قبحه وفق تقدير النسبة الواقعية أو العقلية بين الكلام والمرجع. وبناء على ذلك يتم تداول اللغة وتبادل المعنى على مواضعات اجتماعية وثقافية.

الدارة الكلامية

حاولت اللسانيات التوليدية والتحويلية أن تستدرك ما فات اللسانيات البنوية التي أرسى قواعدها **دو سوسير** في وقوفها على مسألة الإبداع اللغوي في أثناء تناولها للكفاية اللغوية التي تتضمن قبليا قواعد متواترة تسمح بإنتاج عدد غير متناه من الجمل المحدثة وفهمها انطلاقا من عدد محدود من الوحدات الصوتية والأداء اللغوي الذي يمثل مظاهر النشاط اللغوي والإبداع الفردي كما يتجلى في الكلام؛ ومثل ذلك لا تقف عليه الدعاوى المحايثة في اللسانيات البنوية التي لم تبرح في دراستها السكونية لسانيات اللسان؛ غير أن حديث **دو سوسير** عن دارة الكلام أتاح للدارسين فحص جوانب النظرة التواصلية في اللغة. وبما أن الألسن جميعها تتوسل في عملية التبليغ بالصوت اللغوي الذي يصدر عن جهاز النطق وفق تتابع خطي وعلى أساس المواضعة الاجتماعية فإن العلامات الاعتباطية تكون مهيأة لحمل المعنى داخل السلسلة الكلامية التي ترافق سيرورات التواصل.

لقد أصبح مفهوما الاعتباطية والتعليلية في الدراسات السيميائية مركزيين في تمثل العلامة وسيرورتها؛ لأن مفهوم اعتباطية العلامات اللسانية سمح بفهم حقيقة تعدد الألسن وتنوعها. وإلا كيف نستسيغ تفرق ألسن البشر أيدي سبأ وهم من أب واحد؟ وهذا يفضي إلى أن الكلام اللغوي يستقيم على أساس المواضعات الاجتماعية التي تُحوّل العلامات اللسانية إلى قيم رمزية يتداولها المتكلمون، ويستدعون بوساطتها معانيها المحددة في أذهانهم. وإذا كانت البحوث انتهت إلى توكيد العلاقة الجدلية بين اللغة والفكر؛ حيث بات الاعتقاد راسخا بأنه لا فكر بلا لغة، ومن هنا ذهب بعضهم إلى وصف اللغة بأنها أداة تعبير عن الفكر. ففي المقابل حرصت اللسانيات على ترسيخ المفهوم الاجتماعي للغة من خلال ما تعلّمه **دو سوسير** من الفلاسفة **(هردر وهومبولدت)** وعلماء اللغة **(وايتني)** وعلماء الاجتماع **(دوركهايم)** وعلماء النفس الاجتماعي **(طارد)**؛ ولا سيما ما تعلّمه في القرن التاسع عشر من خلال الدراسات اللسانية المقارنة.

يتألف النشاط الكلامي من جانبين: أحدهما عضوي والآخر نفسي. وقد أبرز **دو سوسير** أن مكونات العلامة اللسانية (الدال والمدلول) ذات كيان نفسي؛ بيد أن الكلام وإن ظهر بأنه وثيق الصلة

بالحياة العقلية إلا أنه سرعان ما ينتقل إلى الجانب العضوي. تتم دارة الكلام عبر الجهاز النطقي وعلى مراحل ثلاث يجملها المختصون فيما يأتي:

1- إحداث سلسلة من الأصوات عن طريق جهاز النطق؛ وذلك من قبل الباث والمستقبل. علما بأن الأعضاء التي يتألف منها هذا الجهاز متعددة الوظائف بيولوجيا، و لم توجد خصيصا للوظيفة التواصلية؛ إذ تتنازعها في هذه الوظيفة وظيفتا الهضم والتنفس؛ ولكن التنفس يعد منطلقا لكل عملية تصويتية وتقطيعية للكلام لكونها ذات طبيعة فيزيولوجية. ولهذا تندرج دراسة أعضاء النطق ضمن علم وظائف الأعضاء.

2- بث المرسلة عبر التموجات التي تحدث اهتزازات صوتية عبر الهواء وبمساعدة جهاز البث أو الإرسال. وهذا الطور من إحداث الأصوات اللغوية ذو طبيعة فيزيائية. ويتصدى علم الطبيعة لدراسة هذا الوسائل الفيزيائية بما في ذلك البحث في دراسة الصوت.

3- استقبال الموجات الصوتية وإدراكها من قبل الجهاز السمعي المتمثل في أذن المستقبل (السامع). يشتمل الطور الأخير من العملية التصويتية على الأبعاد الفيزيائية والفيزيولوجية والنفسية.

لا يمكن لعلماء اللسان أن يُقَدّروا تقديرا دقيقا ومحددا عدد الأصوات التي يستطيع جهاز النطق الإنساني أن يصدرها. غير أن تحديد الصوت اللغوي مرهون بالسياق اللساني العام.

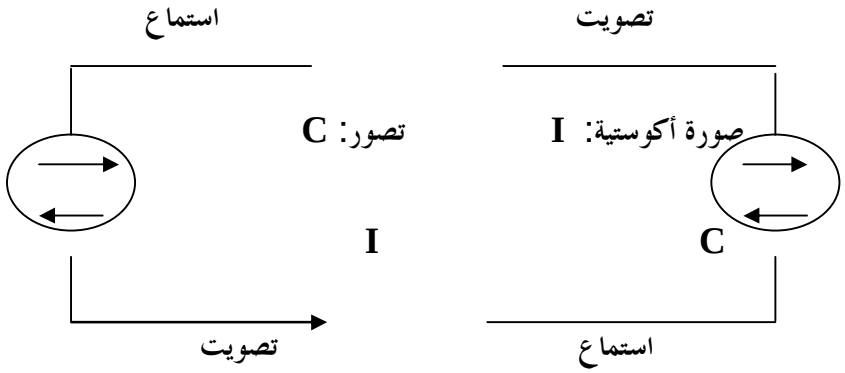

لقد نظرت اللسانيات البنوية إلى التواصل على أنه السمة الجوهرية للسان. وقد ضرب **بلومفليد** مثالا شهيرا بجاك وجيل اللذين كانا يتجولان في البستان. حيث كانت جيل جائعة، فرأت تفاحة في شجرة. فأصدرت أصواتا عن طريق حنجرتها ولسانها وشفتيها، فقفز جاك الشباك، وتسلق الشجرة، ثم قطف التفاحة ليضعها بين يدي جيل، ثم أكلت جيل التفاحة.

قام **بلومفليد**(11) بتحليل المشكلة من منظور سلوكي طبع التفكيرين اللساني والسيميائي في أمريكا. فحدد هذه المشكلة في ثلاث لحظات: أ) مقام ما قبل فعل الكلام، ويتمثل في المثير. ب) الكلام. ج) المقام الذي أعقب فعل الكلام، ويتمثل في الاستجابة. فعملية التواصل تحكمها عملية أمبريقية من خلال المحددين السلوكيين: الإثارة (جوع جيل ورؤيتها للتفاحة) والاستجابة (القفز فوق الحاجز والصعود إلى الشجرة).

وعليه يتمثل رد فعل جيل في إصدار ملفوظ الذي سيتلقاه جاك عبر الموجات الصوتية، فيستقبله عن طريق حاسة السمع. إن **بلومفليد** لا يحتفظ إلا بلحظتي إصدار الملفوظ والاستجابة له عن طريق السمع. أما ما يربط الملفوظ المنطوق المتمثل في (ب) بـــ(أ) و(ج)؛ وهو ما يؤلف "المعنى" الذي يعد جوهر مطلب الإنسان فلا يلتفت إليه؛ بحجة أنه يقع خارج نطاق اللسانيات، ولكن اللسانيات جعلت الوظيفة التواصلية من صميم اللسان؛ إذ نورد هنا تعريف **أندري مارتيني**(12) ((إن لسانا ما ما هو إلا أداة للاتصال تحلل الخبرة الإنسانية من خلالها بطريقة تختلف من لسان إلى آخر، في كل متحد اجتماعي، تُحلَل إلى وحدات ذات مضمون دلالي وتعبير صوتي)). إن وحدات هذا التعريف تعرضت إلى انتقادات ومنها مفهوما "الأداة" و"التواصل"، لكونهما وحدتين ليستا وقفا على اللسان.

ضبط **أندري مارتيني** مفهوم "التواصل" ضبطا يتجاوز إطار النقل ليمتد إلى التبليغ. ولكن يجب الإشارة إلى أن اللسانيات لا تجمع اتجاهاتها على مركزية الوظيفة التواصلية، بل نلفي اللسانيات التحويلية والتوليدية تعد الوظيفة التواصلية مجرد وظيفة ثانوية؛ وهكذا فإن **شومسكي** كان يناصر مثالية **أفلاطون** وعقلانية ديكارت ومنطق جماعة **بور رويال** وموقف همبولدت، ويخالف متصور **بلومفليد** و**فيتجنشتاين**. لقد انشغل **شومسكي** بتوكيد كونية الكلية النحوية التي صادفت رواجا كبيرا في مقابل ما كان يدعو إليه **ياكبسون** بخصوص الكلية الصوتية الوظيفية.

تتمثل عقلانية **شومسكي** في اعتقاده بأن المفاهيم الغامضة التي تعتمد على الحدس لا يمكن أن تؤدي إلى نتائج معقولة. فاللغة يمكن أن تكون أداة للإعلام أو لنقل الأفكار كما يمكن أن تكون أيضا أداة للدعاية والتدجيل واللعب. وفي ظل هذا التباين في تحديد وظائف اللغة فإن هناك من تبنى دعوى تميل إلى تغليب النظرة البنوية الخالصة؛ وإذا استعرنا متصور **هوسرل** قلنا بأن فهم اللغة موقوف على العلم بماهيتها دون الانخراط في البحث عن أولوية وظائفها، والتخلي عن النزوع الغائي الذي كان موطن جدل بين اللغويين والفلاسفة.

إذا حاولنا أن نبحث عما يقابل السيميوزيس -التي هي صلب النظرية السيميائية الأمريكية وبخاصة لدى **بورس وموريس**- في مشروع السيميولوجية لدى **دو سوسير** فسنلفي أن دارة الكلام هي منطلق لكل تحليل سيميائي، ولكن الفعل المعنمي acte sémique بداية لكل نشاط سيميائي حسب **برييطو**، غير أن التحليل المعنمي لا ينبغي أن يلتبس بالدلالات المفتوحة. علما بأن مسعى اللسانيات الإثنية في أمريكا وجه أنظار الباحثين إلى إثنوغرافيا الاتصال التي صار موكولا إليها" أن تثبت ما إذا كان الاستعمال المكتوب للمنظومة اللسانية، والاتصال بالحركات والإشارات، واستعمال الأداء (النغم) وحتى استعمال الصمت، تشكل أولا تشكل منظومة مع الاتصال اللساني الشفهي، وما إذا كانت هذه المنظومة تملك قواعد أدائها الخاصة بها"(13). ومثل هذه المسائل صارت مدار اهتمام التداوليات في تحليلها للخطاب.

إن أي مسعى من أجل إضفاء التطابق أو الترادف بينهما لا يقوم على سلطان مبين. ومن هنا يتضح التباين بين مشروع السيميائيات الأمريكية ذات الصبغة المنطقية والموسوعية كما قادها **بورس وموريس**. إن الفعل المعنمي يكاد يكوِّن لنفسه عالما مغلقا في ظل متصورات السيميائيات المحايثة؛ بينما هو ليس كذلك في نطاق السيميائيات التأويلية التي تحرص على فعالية الشراكة التواصلية؛ حيث يؤدي الأشخاص دورا في تشييد الفعل المعنمي إذا كان محكوما بسياق.

لا تتفرد السيميائيات بتلك الخصيصة التي تنكب على مدارسة الدلالات المفتوحة؛ ولكن المعالم الأولى التي وضعها **دو سوسير** لمشروع السيميولوجيا أكدت حضور الواقعة الاجتماعية في كل نشاط سيميائي "وهذه الواقعة الاجتماعية هي "الثروة المخزونة بواسطة ممارسة الكلام في الذوات المنتمية لنفس الجماعة" أو هي "النسق النحوي الموجود بالقوة في كل دماغ""(14). ومن هنا تكمن أهمية ذلك التمييز الجوهري في النظرية اللسانية التي اشترطها **دو سوسير** بين اللسان الذي لا يمكنه أن يخرج عن الوقائع الاجتماعية؛ لأنه ظاهرة سيميائية وتاليا هو موضوع اللسانيات العامة والكلام بوصفه واقعة فردية ستقع خارج دائرة اهتمام اللسانيات السكونية؛ ومن ثم فهي خارج اهتمام السيميائيات أيضا؛ وذلك لافتقارها إلى خصيصة التماسك والانسجام إذا قيست باللسان.

على الرغم من ذلك سنجد أن مفهوم العلامة لدى **دو سوسير** ذو كيان نفسي بالأساس إلا أن عماد العلامة المواضعة الاجتماعية القائمة على الاعتباطية. وهذا مرتكز الاختلاف بين **دو سوسير وبورس**؛ إذ يرى أن الوظيفة التي يجب أن تضطلع بها السيميائيات هي أن تهتم بتحليل اشتغال العلامة

في الاستعمال الفردي للسيميوزيس الذي لم يلتفت إليه **دو سوسير**، ووضعه خارج دائرة اللسانيات العامة التي كانت قبلتها الأساس الاجتماعي في خلق المواضعة التي هي قوام كل لسان. ولهذا انبرت اللسانيات الإثنية على دراسة العلاقة بين اللغة وسياقها الاجتماعي والثقافي وتأثير ذلك في البناء المعرفي للسلوك اللغوي الذي تنتهجه الجماعات البشرية. وامتدادا لتقاليد البحوث الألمانية للغة في القرن التاسع عشر أضحت اللغة حاملة لرؤيا العالم؛ إذ تتجسد في ثقافة المتكلم؛ ومن ثم اتجهت جهود اللسانيات الإثنية إلى الاهتمام المتزايد بعملية التواصل وملابساتها.

لقد تضافرت جهود المهندسين في تطوير نظرية الاتصال على أساس أن المتكلم والمتلقي يمتلكان السنن نفسه؛ وقد أفاد اللسانيون في الخمسينيات من القرن العشرين من جهود علماء الاتصال وبخاصة في مجال الاتصالات السلكية وغير السلكية؛ ومنهم على وجه الخصوص **رومان ياكبسون** الذي استثمر علوم عصره من رياضيات وهندسة وطب وفيزياء وفلسفة وعلم نفس.

ولهذا توصف " "السيميولوجية" بأنها "العلم العام لكل أنساق التواصل اللسانية وغير اللسانية"(15). والنتيجة الضمنية التي ننتهي إليها من هذا المتصور أن السيميائيات هي "علم المقاصد" من منطلق أن السيميائيات لا تهتم إلا بأنماط التواصل القصدية كما أن نظرية الإعلام لا تهتم إلا بالعناصر الحاملة للخبر، ومن وجهة منظور اللسانيات بعامة والتوزيعية(16) بخاصة فإن العناصر الوحيدة المميزة هي العناصر اللغوية.

وهذا لا يعني أن اللسانيات البنوية والوظيفية على وجه التحديد لا تعترف بوجود وظائف أخرى غير الوظيفة التواصلية للغة. ونحن نلمح هنا بصريح القول إلى أن اللغة حاملة للفكر والأحاسيس والعواطف والمشاعر؛ ولكن مثل هذه الوظائف لا ينظر إليها اللساني على أنها تدخل في دائرة اهتمامه؛ وإنما هي متروكة لحقول معرفية أخرى مثل الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع وما إلى ذلك.

وعلى الرغم من أن الوظيفة التواصلية للغة هي مركز اهتمام اللساني إلا أنه لا يمكن أن ينكر أن النشاط الذهني خارج مجال اللغة يستطيع أن يكتسب صفة الفكر. وقد سبق للتفكير اللغوي في القرن التاسع عشر مع همبولدت على وجه التحديد أن أكد العلاقة الترابطية بين الفكر واللغة. لقد وجدت الفلسفة المعاصرة في موضوع اللغة ضالتها لأنها معلم تهتدي به الكثير من الاتجاهات الفلسفية؛ هذا إذا لم نسق هنا رأي من يشتط في القول بأن اللغة هي مركز التفكير الفلسفي المعاصر. وعلى

الرغم من أن هؤلاء يستندون إلى الوقائع التي يتسم بها الخطاب الفلسفي إلا أن ذلك يغرق الفلسفة في هشاشة التبسيط.

لا يمكن أن نفصل الصوت عن المعنى؛ ولهذا لا تتم مدارسة أصوات الكلام وفهمها وتحديدها وتصنيفها وتفسيرها إلا في إطار ما تضطلع به داخل اللغة؛ وهذا كفيل باستكشاف العلاقات الوطيدة بين الأصوات والمعاني في أثناء السيرورات التواصلية والتغلب على الصعوبات المنهجية التي تعترض سبيل التحليل اللساني. فهل نصف الصوت من زاويته الحركية والأكوستية والسمعية أولا، ثم نقوم بالتحليل البنوي لمادة الصوت أم أن العكس هو السليم منهجيا على نحو ما كان يعتقده **ياكبسون**(17)؟

وبناء على السؤال السالف الذكر وجد علماء الأصوات ضالتهم في استكشاف تلك الوحدة الصوتية الصغرى المسماة بـــ**"الفونيم"** فهو من جهة لا يتوافر على أي معنى؛ لكنه في المقابل يساعد على بيان المعنى. ((إن ما يميزه من كل العناصر أو المكونات اللغوية الأخرى، وبصورة أكثر عمومية من كل القيم السيميوطيقية، هو كونه رمزا سلبيا فقط))(18). لقد تم الوقوف على الخصيصة البنوية في دراسة المادة الصوتية دراسة فونولوجية في ضوء التقابل التبادلي داخل النسق اللساني.

الكلام والفهم من منظور علم النفس اللغوي

يهتم علم النفس اللغوي وعلم النفس المعرفي بعملية إنتاج النصوص وفهمها، وما يرافقها من عمليات ذهنية تحددها السيرورات المعرفية. فكيف تنتج الجمل وما علاقتها بالقواعد؟ وكيف تتم العملية التواصلية في ضوء المعجم الذهنيlexique mental الذي يشبه القاموس؟ لا يمكن لنا أن نطيل النظر في الافتراضات التي أحيطت بالنشأة الأولى للكلام الإنساني؛ لأنها مشوبة بالمطارحات الخيالية التي لا تسمن ولا تغني من جوع في هذا الباب. بيد أن ما هو في حكم المؤكد أن المجموعات البشرية بغض النظر عن أعراقها وثقافاتها وحضاراتها كانت تتوافر على لسان تتواصل به، وتنقل خبراتها بوساطته.

إن من بين خصائص الكلام البشري أنه يتم إنجازه دون أن يعطل عمل أعضاء الجسد مثل اليد والرجل والرأس ..إلخ أو يتقيد بالنور والظلام التي تقتضيها أنساق سيميائية للاتصال. فالتواصل بالإشارات لدى الصم والبكم لا تتم إلا في النور، ولا يصطنعها الضرير لكونها تتطلب حاسة البصر، ولعل ذلك ما يجعل علماء اللسانيات يمنحون الامتياز إلى اللغة المنطوقة فهي تكاد تشمل جميع مناحي الحياة البشرية على الرغم من أهمية الكتابة وبعدها الحضاري.

إن الكلام لا تماثله في سهولة الاتصال إلا الصورة. فالبشر يتواصلون عن طريق الكلام إذا كانوا يتكلمون لسانا واحدا، وقد يضطرون إلى تعلم لغات أخرى؛ لأن من تعلم لغة قوم أمن شرهم، وتعرف إلى ثقافتهم وعلومهم وحضارتهم. ومن هنا يصبح اللسان كيانا يتمتع بالقدرة على جمع الخبرات وتوجيه طاقات البشر إلى استثمار شراكتهم. إنها ليست أداة تواصل ظرفية، وإنما هي حامل لتجارب ضاربة في القدم؛ ولهذا لا يمكن أن نفصل اللغة عن الخطاب، فما دام هناك تواصل فثمة حقيقة خطابية تمتلك وسائل التعبئة.

هوامش

-1

-Bertil Malmberg, Le circuit de la parole, in Le langage, (sous dir. André Martinet, Encyclopédie de la pléiade, Paris, éd. Gallimard, 1968, p. 57.

2- المغني، 7/29.

3- جورج مونان، اللسانيات والترجمة، تر. حسين بن زروق، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 2000، ص. 53.

- Ibid., p. 61. -4

5-إن هذا القانون يحكم السلوك بعامة، ولا يقتصر فقط على اللغة.

.2Ibid., p. 6 -6

- Pierre Guiraud, Langage et théorie de la communication, in Langage, (sous dir. A.- 7 Martinet), p. 145.

29Paul Chauchard, Le Langage et la pensée, p.29 -8

R. H. Robins, Linguistique générale, Une introduction, trad. De Simone Delesalle & Paule9 Guivarc'h, Paris, éd. Armand Colin, 1973, p. 16.

10-على الرغم من أن **دو سوسير** يقدم إشارات لطيفات بخصوص العلاقة الجدلية بين اللسان والكلام؛ إذ إن اللسان يستمد قوانينه من الكلام، وأن اللسان يقدم محددات يهتدي بها الكلام الذي هو بمثابة المخزون الذي ينهل منه اللسان؛ غير أن **دو سوسير** كان صاحب مشروع علمي محدد ودقيق لم يصرفه عنه المسائل التي تخرج عن إطار الاستراتيجية المنهجية التي وضعها لمشروعه المتمثل في بناء الصرح العلمي للسانيات.

- Voir Jeanne Martinet, Clefs pour la sémiologie, éd. Seghers, Paris, 1975, p. 16. 11-

12- وظيفة الألسن وديناميتها، تر. نادر سراج، دار المنتخب العربي، لبنان، ط. 1، 1996، ص. 35.

13- جولييت غارمادي، اللسانة الاجتماعية، تر. خليل أحمد خليل، دار الطليعة، بيروت، ط. 1، 1990، ص. 21.

14- مارسيلود أسكال، الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، تر. حميد لحميداني وآخرين، دار إفريقيا للشرق، المغرب، 1989، ص. 21.

Claude Germain & Raymond Le Blanc, Introduction à la linguistique générale, La -15 sémiologie de la communication, éd. Les presses de l'université de Montréal, 1983, p..

16- ينظر أحمد يوسف، توزيعية هاريس والتحليل النسقي للخطاب، مجلة عالم الفكر، الكويت، ع. 1، مج. 33، س. 2004، صص. 107-137.

17- ست محاضرات في الصوت والمعنى، تر. حسن ناظم وعلي حاكم صالح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط. 1، 1994، ص. 143.
18-المرجع السابق، ص. 143.

صدر حديثا